

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه .

أما بعد

فإن القرآن كتاب الله الخالد ، ودستور الإسلام الجامع ، وآية الرسول العظمى ، ومعجزته الباقية الكبرى . وهو مصدر الإسلام الأول ، عقيدة وشريعة ، وأخلاقاً وآداباً ، أودعه الله من كنوز المعرفة ، وأسرار الحق ، وأصول العدل ، ومناهج الخير ، وضوابط السلوك ، وقواعد الهداية والتشريع ، ما ينطق بأنه : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت: ٤٢)

إنه الهدى والضياء ، والعلاج والشفاء ، للناس عامة ، وللمؤمنين خاصة : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧) لهذا يجب أن تستمد من معينه فلسفة الحياة ، ونظام الحياة ، فلا يصح الاعتقاد ، ويقبل التعبد وتطهر الأخلاق ، وتزكو الأنفس ، وتستقيم الأفكار ، وينتظم التعامل ، ويتحقق العدل ، ويسعد الفرد ، ويرقى المجتمع ، إلا إذا بنى ذلك كله على أساس من هداية القرآن .

ولقد جهد العلماء من السابقين واللاحقين جهدهم ، أن يتواصوا على أسرار هذا الكتاب المجيد ، ويستخرجوا لآلته ، وينبشوا عن كنوزه ، كل في مجال اختصاصه ، وميدان اهتمامه ، ففتح الله لهم ما شاء من أسرار هذا الكتاب ، وأفاض عليهم من ذلك ما تحتمله طاقة البشر ، وما يلائم الزمان والمكان والحال ، وظهرت عشرات ، بل مئات من التفاسير ، مختلفة المشارب ، متنوعة المذاهب ، متعددة الألوان ، ما بين طويل مبسوط ، ووجيز مختصر ، ووسيط بين البسط والاختصار . منها ما اعتمد على النقل والرواية - ومنها ما اعتمد على الرأي والدراية ، ومنها ما جمع بينهما .

منها ما تحرر من المذهبية ، ومنها ما غلب عليه طابع خاص : كلامى أو فقهى أو صوفى . بل منها ما خرج عن حدود اللغة وأصول الشرع ، فضلاً عن سواء السبيل : كتفاسير الباطنية .

وظهرت بجوار التفاسير الكاملة للقرآن ، أنواع أخرى من المؤلفات والدراسات لخدمة القرآن وبيانه للناس .

وذلك مثل المؤلفات فى « أحكام القرآن » أو فى « علوم القرآن » بصفة عامة ، أو فرع أو نوع خاص منها ، مثل : إعجاز القرآن ، أو مجاز القرآن ، أو القراءات وما يتعلق بها ، أو أصول التفسير . . . إلى غير ذلك من ألوان العلوم التى تنتسب إلى القرآن ، وتقصد إلى خدمته .

وفى عصرنا برز لون جديد من ألوان الدراسات القرآنية ، وإن شئت قلت : لون جديد من التفسير للقرآن ، وهو تفسير القرآن ، حسب الموضوعات التى اشتمل عليها ، وهو ليس تفسيراً بالمعنى الاصطلاحى المألوف ، بل هو جمع للآيات الواردة فى الموضوع فى مختلف سور القرآن ، ثم تصنيفها ، والاستنباط منها أو التعقيب عليها . وقد عرفنا منها نموذجاً فى القديم يتمثل فى كتاب « التبيان فى أقسام القرآن » للإمام ابن القيم .

أما حديثاً فرأينا ذلك فى كتاب « الوحي المحمدى » للسيد رشيد رضا . حيث تحدث فيه عن مقاصد القرآن ، وفصلها فى ثمانية مقاصد . استشهد لكل مقصد منها بالآيات المتعلقة به .

ورأيناه فى رسالتين للشيخ محمود شلتوت ، شيخ الأزهر الأسبق ، وهما : « القرآن والقتال » و « القرآن والمرأة » .

ورأينا فى هذا المجال أكثر من كتاب للأستاذ عباس محمود العقاد مثل : « المرأة فى القرآن الكريم » و « الإنسان فى القرآن الكريم » وكذلك « الفلسفة القرآنية » .

وللمغفور له الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز كتابه القيم « دستور الأخلاق فى القرآن » الذى ألفه بالفرنسية ، وحصل به على درجة الدكتوراه من السوربون ، وترجمه أخيراً الدكتور عبد الصبور شاهين إلى العربية .

ومن هذا اللون بعض كتب الأستاذ محمد عزة دروزة مثل : « الدستور القرآنى فى شئون الحياة » و « سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن » و « القرآن والضمان الاجتماعى » ومن ذلك كتاب الأستاذ محمد شديد « التربية فى القرآن الكريم » .
وكتب ورسائل أخرى تتناول موضوعاً أو أكثر من موضوعات القرآن بالشرح والتحليل .

ورأى أن هذا اللون من الدراسات القرآنية جد نافع ، وخاصة فى عصرنا ، ولا يغنى عنه وجود التفاسير الكاملة للقرآن كله على النسق المألوف .

وذلك لأن التوفّر على موضوع واحد معين ، وتتبع موارده ومآخذه فى القرآن كله ، مكيه ومدنيه ، لتجلية جوانبه كلها ، يهيئ له من العناية والبيان والدراسة ، ما لا يتهيأ له لو درس أثناء التفسير الكلى العام .

كما أن هذا النوع من التفسير يفسح المجال للدارسين فى شتى التخصصات ، ليحاول كل منهم تجلية ما يتعلق باختصاصه من القرآن بصورة أعمق مما لو تناوله غيره .

فرجل الفقه يعنى بآيات التشريع والأحكام والحدود . . . إلخ .

ورجل الاقتصاد يعنى بآيات المال والإنتاج والتوزيع والإنفاق .

ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية .

ورجل التربية يعنى بآيات التوجيه والإرشاد والقصص وغيرها . . . وهلم جراً .

وهكذا يعنى كل متخصص بموضوع تخصصه ومجال اهتمامه ، ويركز عليه ، ويجدد بما أوتى من علم وفى هذا فائدة أكبر .

وأمر ثالث : وهو أن تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة خليق أن يبين للناس لوناً جديداً من الإعجاز ، يتمثل فى معنى القرآن وحضرته ، وسعة ما احتوى من موضوعات قيمة تعد بالمئات ، بل بالآلاف ، مع أنه كتاب محدود الصفحات ، ويوضع فى « الجيب » ، وأن الذى أتى به رجل أمى فى أمة أمية .

وإيماناً منى بهذه الفكرة شرعت أكتب عن بعض الموضوعات القرآنية على هذا النسق ، وها أنذا أقدم نموذجاً منها ، وهو «الصبر فى القرآن» آملاً أن تتبعه نماذج أخرى ، بتوفيق الله تعالى وعونه ، سائلاً الله تعالى أن يكون فيه ما يساعدنا على الاهتداء بنور القرآن ، والاعتصام بحبله ، والاستقامة على صراطه ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

الفقير إلى عفوره
يوسف القرضاوى